1. لمحة تاريخية عن تطور المفهوم:

القانون القديم : السير هنري مين:

ولد السير هنري مين[1] Henry James Sumner Maine في الهند عام 1822 وانتقل الى انكلترا فدرس القانون في الجامعة (كمبرج) ثم اصبح فيها استاذ فيها. وقد عمل في الستينات من القرن الماضي في الهند؛ عندما كانت تحت التاج البرطاني. ثم عاد الى انكلترا وواصل تدريس القانون في (جامعة اكسفورد) واصبح فيما بعد رئيسا لـ: (مدرسة تاريخ القانون الانكليزي) وتوفي عام 1888. خلال اقامته في الهند. وجمع مين معلومات اثنوغرافية قيمه وحصل على خبرة عميقة حول تطور القوانين؛ منطلقا من تصوره لفكرة التطور الاجتماعي الذي يقوم على تقدم مطرد يرتبط بشروط وعلاقات عائلية شخصية تتحول الى علاقات اجتماعية غير شخصية.

اعتمد مين في دراسته للتطور الاجتماعي، على دراسته للمؤسسات الرومانية القديمه وفي القرون الوسطى، وكذلك على ما جمعه من معلومات اثنوغرافية وتجارب علمية من الهند، مع اخذه بعين الاعتبار اهمية القانون البدائي[2]، واصدره كتاب (قوانين العائلة عند الاقوام السلافيه)[3].

اعتقد مين ان التاريخ الانكليزي والتاريخ الهندي، وبخاصة تاريخ نضام الملكية، يعودان الى اصل واحد هو (العائلة الابوية)[4] ورأى ان

---

[1] السير هنري جيمس مين سومنر هو فقيه وعالم أنثربولوجي بريطاني، كان أستاذاً في جامعة أكسفورد. وهو مؤرخ للقانون السياسي ، ويعتبر الآن أحد رواد علم اجتماع القانون والأنثروبولوجيا القانونية. أنظر موسوعة ويكيبيديا.

[2] يثير مفهوم ((بدائي)) ومجتمع بدائي PRIMITIVE , PRIMITIVE SOCIETY وما يزال كثيرا من الشكوك والتساؤلات النقدية منذ ان استخدم المفهم في الدراسات الانثروبولوجية في القرن التاسع عشر لوصف المجتمعات التقليدية ذات التكنولوجيا البسيطة ، خصوصا في المجتمعات التي لم تكن تمتلك امكانية الكتابة اولا ، والمجتمعات الغريبة EXOTIC التي تختلف في بنايتها الجتماعية والاقتصادية والثقافية عن المجتمعات الغربية المتقدمة تكنولوجيا ثانيا ، والمواقف المتميزة وبخاصة من قبل السياسات الاستعمارية التوسعية التي وجهت نحو ما كان يسمى المجتمعات المتخلفة ثالثا، وما زال هذا المفهوم ساري في الدراسات الانثروبولوجية، وقد اكدت الدراسات والبحوث الميدانية التي اجريت حول المجتمعات التقليدية، وبخاصة تلك التي تمتلك امكانية الكتابة، والتي بقيت خلال فترة الاستعمار والثورة الصناعية ذات بنية وتنظيم اجتماعي معقد ، سواء من حيث او في المجالات الاجتماعية والدينية والقرابية . ومنذ الحضارات اليونانية والرومانية وحتى العصور الوسطى ، كان الاوروبيون يطلقون على الشعوب غير الاوروبية بانهم ((برابرة)) يعيشون على الطبيعة ولايبذلون اي جهد فكري ، فهم (كفار) متوحشون ، وما زالو يعيشون حياة منعزلة ، ليس لهم نظام اجتماعي ، ويعيشون في حالة شيوعية بدائية واباحية وجنسية ، منطلقين من فكرة ((التمركز السلالي)) الاوروبية التي تعتبر ان الاوروبيين هم ((افضل)) من غيرهم من الشعوب واكثر منهم تقدما من الناحيتين العلمية والتكنولوجية ، وحتى البيويلوجية . انظر الحيدري ، ابراهيم ، انثولوجيا الفنون التقليدية ، المصدر السابق ، ص 31 – 32 .

[3] السلاف، أو الصّقالبة هم مجموعة عرقية لغوية يتحدثون باللغات السلافية .يستقرون أساساً في أوروبا الوسطى، وأوروبا الشرقية، ودول البلقان وقاموا في العصور الأخيرة باستيطان آسيا الشمالية.

ينقسم السلاف إلى سلاف شرقيين (الروس والأوكرانيين والبيلاروسيين)، سلاف غربيين (البولنديين والسلوفاكيين والتشيكيين) وسلاف جنوبيين (السلوفينيين والكروات والصرب والمقدونيين والبوسنيين والبلغار). أنظر الموسوعات العالمية الإلكترونية.

[4] انظر: ابراهيم الحيدري، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، دار الساقي، الطبعة الإلكترونية ، بيروت- لبنان ، سنة 2011.

العائلة غير مقسمة الى وحدات صغيرة، تكون وحدة الاقارب، يتسبب جميع الرجال فيها الى خط نسب واحد حتى الجد الاعلى، وهم يعيشون مع زوجاتهم واولادهم ويعملون معا، ويكونون ملكية مشتركة واحدة تنتقل من جيل الى جيل وبدون انقطاع. وان بقايا هذه الوحدات العائلية المشتركة ما زالت موجودة في الهند. وقد لاحظ وعايش مثل هذه الوحدات العائلية المشتركة، وبخاصة في البنغالBengale [5] والبنجاب Pendjab[6]، وكذلك في الشمال الغربي من الهند. كما اشار الى وجود ما يماثل هذه البقايا في العصر الجرماني في اوروبا وانكلترا كذلك .

وقد ساعدته دراسته للعلاقات الاجتماعية في العائلة الهندية خلال اقامته في الهند، عل توضيح كثير من المسائل التي ارتبطت بماضي انكلترا، مثل التطور من السنة نفسها التي صدر فيها كتاب (حق الام) لباخوفن، وذهب فيه الى ان العائلة الابوية الكبيرة Famille paternelle étendue هي الشكل الاصلي للحياة الاجتماعية، وان السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها رئيس العائلة كانت هي السبب في ظهور نظام الانتساب الى الاجداد، وفي خط نسب الذكور فقط.

الزواج البدائي : ماكلينان:

بعد اربع اعوام فقط عل صدور كتاب باخوفن . وكتاب هنري مين ، صدر كتاب ماكلينان[7] John Ferguson McLennan، (1827-1881) الزواج البدائي عام 1865 مستقلا عن باخوفن Johann Jakob Bachofen.[8]

كان مكلينان متفقها في موضوع القرابة . فدرس بشكل خاص اشكال الزواج القديمه وبصورة خاصة (الزواج الخارجي

---

[5] البنغال هي منطقة جغرافية ذات خصائص عرقية ولغوية مميزة تقع في القسم الشرقي من شبه القارة الهندية عند قمة خليج البنغال.

[6] البنجاب ولاية هندية تقع في شمال الهند ، وتشكل الجزء الكبير من اقليم البنجاب . يحدها من الشمال ولاية جامو وكشمير ، من الغرب هيمشال باراديش ، هاريانا من الجنوب والجنوب الشرقي ، ومحافظة البنجاب الباكستانية من الشرق ، راجستان من الجنوب الغربي .عاصمتها مدينة شانديغرا . (موسوعة ويكيبيديا).

[7] جون فيرغسون ماكلينان John Ferguson McLennan (14 أكتوبر 1827 - 16 يونيو 1881) ، عالمًا متخصصًا في الإثنولوجيا، ومحامي اسكتلندي.

[8] يوهان ياكوب باخوفن (22 ديسمبر 1815 - 25 نوفمبر 1887) (بالألمانية: Johann Jakob Bachofen) هو مؤرخ سويسري للقانون والدين. ويعد كتابه "حق الأمومة" (1861) عملاً رائداً في دراسة تاريخ الأسرة وخاصة الأسرة الأمومية. انتقد انجلز فلسفته في كتابه "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة".

EXOGOAMIE) اي الزواج بنساء من خارج العشيرة. وكان أول من استعمل هذا المصطلح.

وقد رأى ان الانسان الاول كان يعيش حياة بدائية، اتسمت حياته العائليه بـ: (الإباحية الجنسيه) Inceste [9] الطليقه عل الرغم من انه كان يعيش على شكل جماعات طوطمية Totémisme[10]. صغيرة تقوم العلاقات فيها على اساس القرابة الدمويةparenté sanguine ، تتبع نظام الزواج الخارجيExogamie[11]. ثم انتقلت هذه الجماعات الى مرحلة (تعدد الازواج POLYANDRIE) ومنها الى نظام الانتساب الى الابPatrilinéarité .[12]

اشار ماكلينان، بعد مشاهدات عديدة في مجتمعات بدائية، وكذلك في عدد من الاقوام المتحضرة، قديمة كانت ام حديثة، الى أن كثيرا ما يتظاهر الخطاب في يوم الزواج باغتصاب خطيبته أوسرقتها من قبيلة اخرى غير قبيلته. واستنتج من ذلك. ان هذه العادة انما هي من بقايا عادة اخرى اقدم منها تشير الى الزواج الخارجي، اي تزوج افراد القبيلة من نساء قبيلة أخرى. ثم اخذ يبحث عن اصل هذه العادة وعن سبب ظهورها، وتوصل إلى أن هذه العادة ناتجة عن وأد البنات[13] الشائع في المجتمعات القديمة عند بعض القبائل، مما اضطرهم الى أن تتزوج مجموعة من الرجال بامرأة واحدة فقط. وهذا بحسب رأيه اصل تعدد الازواج وظهور مبدأ الامومة والانتساب الى الأم .

ومع ان اغلب الانثروبولوجيين يعتبرون تصنيفات ماكلينان غير دقيقة وغير واضحة ، وبصورة خاصة ما يخص الزواج الداخلي والزواج الخاجي، الا ان مأثرة ماكلينان الهامة انه اعتبر نظام ((حق الأم)) هو الاول والاصل، وأن باخوفن كان قد سبقه الى ذلك .

---

[9] Inceste: Relation sexuelle prohibée entre individus apparentés à un degré qui interdit leur union ou appartenant à un groupe à l'intérieur duquel toute relation sexuelle ou tout mariage est condamné.

[10] Totémisme: Le totémisme est un concept anthropologique qui désigne un mode d'organisation social et religieux, clanique ou tribal, fondé sur le principe du totem..

[11] Exogamie: mariage en dehors du groupe de parenté.

[12] Patrilinéarité: Filiation par l'homme.

[13] وأد البنات: يعني التخلص من جنين حي ما بسبب جنسه، ويتم الأمر في مناطق يتم فيها تفضيل الأطفال الذكور عن الإناث. ويعود السبب إلى بنية المجتمعات الشعبية القائمة على النظام الأبوي الذكوري التقليدي التي يمارس التمييز الممنهج ضد الإناث ويعطي الذكر أهمية ومكانة مجتمعية أعلى من الأنثى. وهو مفهوم مختلف عن الإجهاض لأنه يحدث بعد اكمال فترة الحمل كلها وولادة الطفل عندما لا يكون الإجهاض متوفرا.

العائلة والزواج في البلاد العربية القديمة وليم روبرتسون سمث:

وقد تأثر بهذه النظريات مستشرق اسكتلندي اخر وهو وليم روبرتسون سمث **William Robertson Smith** (1846-1894)[14] الذي حاول تطبيق هذه النظرية على القبائل العر بية القديمة في جنوب الجزيرة العربية، في كتابه (العائلة والزواج في البلاد العربية القديمة)، وسوف نتطرق الى آرائه عند استعراضنا لنظام الامومة عند العرب.

وقبل صدور هذه الكتب الانثرو بولوجية الهامه كان لفيتاو LAFTAU اليسوعي الفرنسي ساح في امريكا الشمالية وعاش بين قبائل الاروكيزن (الاريكوا) والهورونن، وهي من قبائل الهنود الحمر وجمع عنهم (الهنود الحمر) معلومات قيمة ووضع دراسة مقارنة عن العادات والتقاليد الشائعة عند الهنود الحمر في امريكا الشمالية، وتوصل فيها الى رأي يتفق مع ما جاء به هيرودوت حول انتساب هذه القبائل الى خط الام. وقد جمع ليفتاو نصوصا قيمه من المؤرخين الاغريق امثال هراكليوس وبونتيكوس ونيلوكوس ودمسكوس، تدعم الارتباط بين الانتساب الى خط الام وبين النظام الاجتماعي الذي يعطي السلطة في يد الام .

وبالرغم من هذا التشابه بين باخوفن وليفتاو ، في الوصول الى النتائج نفسها تقريبا ، الا ان ليفتاو كان اكثر نقدا وتجريبا لنظيرة (حق الام) من باخوفن.

لويس مورغان والمجتمع القديم:

في عام 1877 صدر كتاب المجتمع القديم لهنري لويس مورغان (1818-1881) الذي بحث فيه مراحل التطور الاجتماعي ،. ورأى ان التقدم التكنولوجي يستتبعه بالضرورة تغير في النظم الاجتماعية

---

[14] ويليام روبرتسون سميث William Robertson Smith (1846 – 1894) أنثروبولوجي إسكتلندي وعالم في العهد القديم وأستاذ الإلهيات وقس كنيسة اسكتلندا الحرة. كان من محرري الموسوعة البريطانية وهو معروف بكتابه دين الساميين الذي يعتبر نصا أساسيا في مقارنة الأديان.

السائدة ، حتى يكون هناك توافق وانسجام بين النظم الاجتماعية وما احدثه التقدم من تغيرات .

قسم مورغان المجتمع البشري ، على امتداد تاريخه الطويل ، الى ثلال مراحل رئيسية، وجعل لكل مرحلة متميزة ترتبط باختراع تكنولوجي هام وهي.

أ- مرحلة التوحشSAVAGRISM ؛

ب- مرحلة البربريةBARBARISM ؛

ج- مرحلة المدنيةCIVLIZATION ؛

كما قسم كل مرحلة من المراحل الثلاث الى مراحل ثانوية دنيا ومتوسطة وعليا . وقد رأى ان المجتمع البشري كان قد بأ متوحشا ثم متحضرا . وقد حدث ان توقفت بعض قطاعات المجتمع البشري عند مرحلة من هذه المراحل ، كما حدث في مجتمع (الاروكيزن LROKESEN الاريكوا IROQUIS) وهو احد مجتمعات الهنود الحمر في مقاطعة نيويورك باميركا الشمالية.

وفي الحقيقة ، فأن ابرز ما اكدت عليه ((نظرية التطور)) لمورغان هو ان اي تطور في المجلات الاقتصادية تستتبعه بالضرورة تغيرات في شكل الملكية ونظام القرابة والعائلة والسلطة .

لقد كان صدور كتاب مورغان دعما قويا وتعضيدا لنظرية خاصة ((حق الام)) وفي تأكيده على انتساب الاروكيزن الى خط الام ، واكتشافه نظاما هاما للقرابة لاحد مجتمعات الهنود الحمر في اميركا الشمالية.

يقول مورغان ان بنية النظام القرابي التي تسود مجتمع الاروكيزن تختلف اساسا عن بنية النظام القرابي المعروف بـ: KOGNATISCH الذي يقوم على رابطة الدم. حيث يرتبط الاطفال بكل اقرباء الام والاب، وهو عكس النظام القرابي المعروف بـ: AGNATISCH الذي ينتسب فيه الاطفال الى خط نسب قرابي واحد ، اما عن طريق الام او عن طريق الاب.

ان هذا الشكل من النظام القرابي الذي يقوم عل الانتساب الى خط واحد. وهو الانتساب الى الاب، وكان معروفا في المجتمع الاغريقي القديم، الا ان فهم هذا النظام القرابي وتحليله، جاء عن طرق مورغان وبعد دراسته لنظم القرابة والعلاقات الاجتماعية والعائلية عند الاروكيزن في امريكا الشمالية، وبعد تقريره بوجود مثل هذا النظام القرابي عندهم، الذي يقوم على الانتساب الى خط الام فقط. بينما كان النظام القرابي لدى الاغريق القدماء يقوم على الانتساب الى خط الاب فقط. ومعنى ذلك ان اقرباء الشخص هم فقط اولئك الذين يرتبطون بالأب بعلاقة دموية، كالأب والجد والعم وجد العم وهكذا .

وفي الحقيقة، لم يكن احد قد فكر، حتى ذلك التاريخ، بوجود مثل هذ النظام القرابي، حتى باخوفن نفسه، الذي لم يطلع الا على ما كتبه هيرودوت وغيره من المؤرخين الكلاسيكين عن قبائل الليكير والامزونن وغيرها. وقد استطاع المرء بعد اكتشاف مورغان الجديد، فهم ما جاءت به نظرية باخوفن، وان النظام القرابي الذي اخبرنا به هيرودوت عن الليكير اصبح اكثر وضوحا وفهما.

والى جانب ذلك، فأن مورغان لم يكتشف نظاما قرابيا جديدا فحسب، بل اكتشف نظاما سياسيا لم يكن معروفا من قبل. فقد وجد مورغان ان التنظيم القرابي للاروكيزن يشابه في وجوه عديدة التنظيم القرابي الموجود لدى عدد كبير من القبائل في اسيا، ويختلف قليلا عما هو موجود في افريقيا واستراليا . وقد اطلق مورغان على التنظيم السياسي مصطلح ((الفوضى المنضمة GEORDNETE)) ANARCHIEوهو تنظيم سياسي يقوم على العرف ولايقوم على قانون مكتوب

ان عشائر الاروكيزن المتعددة ترتبط جميعا بخط واحد من النسب هو خط الان . ولا يوجد لدى هذه العشائر تنظيم مركزي ، وانما هناك جماعات يرتبط افرادها بعلاقات قرابية واحدة وينتسبون كلهم الى ام واحدة هي ((الام الاولى URMUTTER)) وقد اطلق مورغان على هذا التنظيم القرابي الجماعي بصفه ((العشيرة GENS)) الذي مع

ما كان سائداً في روما القديمة ، كما اطلق غلى هذا الشكل من المجتمعات توصيف ((المجتمع العشائري)) GENTILGESSELSCHAFT

ان الاكتشاف الجديد لشكل العشيرة الاولية التي تقوم على ((حق الام)) او الانتساب الى خط الام ، او الانتساب الى خط الاب ، يتسم بالنسب الى دراسة المجتمعات القديمة ، باهمية فائقة ، لانه قدم اظافات اثنولوجية الى الانثروبولوجيا ، وبخاصة الوظيفية ، واعطى دفعا جديدا واهتماما متزايدا ، ودفع مايلوفسكي وبراون ، مؤسسي الانثروبولوجيا البريطانية منذ بداية القرن الماضي ، الى القيام بمزيد من الدراسات الميدانية للمجتمعات التقليدية في جنوب اسيا وافريقيا ، تلك المجتمعات التي يرتبط تنظيمها القرابي بخط واحد من النسب ، اما حسب خط الام او حسب خط الاب او احدهما ، وكذلك الاهتمام المتزايد بالتنظيم السياسي لتلك المجتمعات وارتباطه بالتنظيم القرابي ، خصوصا في تلك المجتمعات

تقاسم التركة اولادها واخواتها من امها دون اختها ، وللسبب نفسه . ولم يكن بالامكان وراثه الزوج لزوجته او الزوجة لزوجها ، كما لم يكن بالامكان ان يرث الاولاد اباءهم.

ان النظام الاجتماعي الذي عاش في ضله الاروكيزن اكثر من اربعمئة عام . ما زالو يعيشون في ظله حتى الان (في نهاية القرن التاسع العاشر) . وبحسب مورغان فأن مجتمع الاروكيزن لا يعرف الدولة ’لانها تفترض مقدما سلطة عامة وخاصة الاجتماعي ، عن مجموع الافراد الذين تتألف منهم . وان هذا الشكل من التنظيم الاجتماعي ، وهو مجتمع عشائري ذو تنظيم بسيط معقد . حيث لا يوجد فيه ملوك وحكام وسلطات تنفيذية وقوانين ، ويسير كل شي فيه حسب النظام التقليدي المقرر. اما المنازعات فتحلها العشيرة بنفسها ، ولذالك فهو ((مجتمع من دون طبقات ((

كما ذهب مورغان ابعد من ذلك في دراسته للاروكزين ، واخذ يقارن بين مجتمع الاروكزين والمجتمعات الاغريقية والرومانية

القديمة ، واثبت ان الجماعات التي ترتبط بعلاقة قرابة دموية ، والتي تسمي نفسها بأسماء طواطمها ، كما عند الهنود الحمر في الامريكيتين الشمالية والجنوبية ، هي متماثلة من حيث الجوهر مع الجماعة المعروفة عند الاغريق والرومان تحت اسم GENT و . GENEA وان الشكل الاميركي لها هو الشكل الاولي ، والشكل الاغريقي والروماني هو الشكل اللاحق ، المشتق . وان التنظيم الاجتماعي الاغريقي والروماني كله ، كان الازمنة الغابرة على شكل عشيرة ايظا , PHRATRIAمقابل التنظيم الاجتماعي للهنود الحمر . وان العشيرة حسب اغلب العلماء الانثروبولوجيا ، هي مؤسسة اجتماعية مشتركة نجدها في جميع المجتمعات القديمة واستمرت حتى دخولها مرحلة المدنية . كما ان هذه المقارنة تكشف الكثير عن اصعب مراحل التاريخين اليوناني والروماني ، وتعطي في الوقت ذاته ، تفسيرا اخر للسمات الاساسية للنظام الاجتماعي في المجتمعات والازمان البدائية ، قبل نشوء الدولة .

ان المأثرة الاساسية لمورغان هي اتفاقه الحاسم مع باخوفن حول قدم مرحلة (الاباحية الجنسية) فالهنود الحمر في اميركا الشمالية ، الذين ينتسبون الى خط الام . يقفون في مرحلة حضارية قديمة جدا . وهو عكس ماهو شائع عند الاغريق والرومان ، الذين ينتسبون الى خط الاب فقط وبهذا يصل مورغان الى القول ان الانتساب الى خط الام يقف تاريخيا في مرحلة حضارية مبكرة جدا.

يشير مورغان الى انه في البداية ، ساد نظام ((الاباحية الجنسية)) ثم تبعه نظام الزواج الجماعي ، الذي يقوم بين عدد من الرجال مع عدد من اخر من النساء . وفي المرحلتين ، لم يكن من المستطاع تحديد من يكون الاب ، ولذالك انتسب الاطفال الى امهاتهم . والخطوة الاخرى الت توصل مورغان ، هي الانتقال من الانتساب الى خط الام الى الانتساب خط الاب . لقد حدث هذا التحول بسبب ازدياد الانتاج ، وذالك نتيجة لاكتشاف الانسان للزراعة وازدياد امتلاك المواشي ، وهي فكرة تطور الملكية الفردية التي قضت عل

الملكية الجماعية . فحين بدا الرجال يزيون من ملكيتهم الفردية من المواشي . ازدادت مكانتهم في المجتمع . كما ان الحاجة الى توريث المواشي الى الابناء ، الذي لم يكن ممكنا في نظام العشيرة الامومية التي يكون النسب فيها الى خط الام ، دفعت الى نشوء نظام الزواج الاحادي ، من اجل ان يرث الابن ما يملكه ابوه.

هذه الخطوة بالنسبة الى مورغان ، هي خطوة حاسمة في انهيار مجتمع العشيرة وتطور الدولة ، خصوصا بعد ان اصبحت فكرة الملكية قوية . ومن اجل حماية الملكية الخاصة للافراد . تطورت الدولة ، بعد ان فقد النظام العشائري وجوده وحلت الدولة محل العشيرة .

اضافة الى ذالك . فأن الشيء الذي لم يستطيع ماكلينان التوصل اليه بخصوص الزواج الداخلي والخارجي . توصل اليه مورغان في دراسته لنظم العائلة والزواج عند الاروكيزن . فالزواج في عشائر الاروكيزن هو زواج خارجي اي ان النساء والرجال لا يباح لهم الزواج من داخل العشيرة ، بل من عشائر اخرى ، ومن هنا ، يظهر بوضوح ان الزواج م داخل القبيلة هو زواج داخلي والزواج من خارج القبيلة هو زواج خارجي . وان الترابط بين الزواج الداخلي والزواج الخارجي يلعب دورا هاما في وحدة القبيلة وتوازن المجتمع.

ان اكتشاف مورغان للعلاقة الوثيقة بين التنظيم القرابي والتنظيم السياسي ، والترابط بين الزواج الداخلي والزواج الخارجي ودوريهما في وحدة القبيلة وتوازنها ، وتشابه هذه العلاقة ، وكذالك الترابط مع التنظيمات العشاءرية لاخرى في مجتمعات اسيوية وافريقية ، وجعل مورغان الاب / الاصل للانثروبولوجيا البريطانية . غير ان ماير فورتس يقول ان الانثروبولوجيين البرطانين كانو قد اخذوا الجانب الوظيفي – البنائي من نظريته واهملوا الجانب التاريخي الهام منها . وقد اعترف الوظيفيون البرطانييون ، وبصورة خاصة راد كلف بروان R.BRAWN بأن التطابق الذي اكتشفه مورغان في العلاقة الوثيقة التي تربط النظام القرابي بالنظام السياسي كان قد دلهم عل المفاتيح الوظيفية التي استخدموها في نظريتهم.

وعلى هذا الاساس ، انجز تلاميذه راد كلف بروان عدة دراسات ميدانية ، واثنوغرافية واثنولوجية هامة ، في مجتمعات افريقية عديدة ، دعمت نظرية مورغان واكدت على هذا التطابق . ومن بين هؤلاء ايفانسبرجرد EVANS-PRITCHARD في كتابه النوير NUAER , ومايرفورتس M.FORTES في كتابه التاالنزي TALLENZI .

انجلز : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة:

بعد اربع عشر عام من صدور كتاب مورغان نظم القرابة والنسب ، وسبعة اعوام من صدور كتاب المجتمع القديم ، صدر كتاب فرديرك انجلز اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة عام 1884 . لم يكن ما كتبه مورغان بالنسبة الى كارل ماركس و فردريك انجلز حدثا جديدا في معرفة نمط انتاج ما قبل الرأسمالية فحسب بل ايظا طريقته العلمية في توضيح اهمية الانتاج المادي في تطور المجتمع البشري.

وقد اعتمد انجلز اساسا على مسودة ماركس حول مورغان ، وبضصورة خاصة في تحديد التشكلات العائلية وخصائصها ، التي قدمت افكارا لمسالة المرأة ومكانتها في المجتمع ، وهي المسالة التي لم تكن مهمة باالنسبة الى مورغان ، وكذلك بالنسبة الى استغلال المرأة الطبقي . كما حدد اسباب الزواج الخارجي في المجتمع الروماني القديم ، مستندا بذلك الى المؤرخين امثال لفيوس ومومسن وكوفالفيسكي ، الذين لم يكن مورغان قد تعرف اليهم .كما استند انجلز الى النظام العشائري الجرماني وتطوره في اوربا . وبهذا اصبح رأي انجلز لاصل العائلة وتطورها اكثر وضوحا و وبصورة خاصة اهتمامه بأصل الدولة وتطورها في المجتمع العشائري القديم.

ينطلق انجلز في تتبعه لاصل العئلة ، من ان البشرية عاشت في البداية في ((شيوعية بدائية)) وفي شكل جماعات عشائرية HRDEN , وقد مثلت تلك المرحلة اولى المراحل التطورية البدائية في تاريخ البشرية ، حيث كانت السلطة في المجتمع والعائلة بيد الام ، وكذالك بسبب ان علاقات الانتاج لم تكن متقدمة ،و بصورة خاصة

الغذاء والعمل . وان تقسيم العمل الاجتماعي الوحيد الذي ساد حينذاك ، كان حسب العمر والجنس ، الامر الذي جعل المراة هي التي تقوم بالجهد الاساسي والفعلي . وذالك بسبب الهيمنة التي كانت تتمع بها تلك المرحلة البدائية القديمة، في كل مكان . الا ان تطور قوى الانتاج قد انهى مرحلة (الشيوعية البدائية) واخذت القرابة الدموية تلعب دورا هاما في تطور وسائل الانتاج ، كالمواشي والارض وغيرها ، مما ادى الى تطور علاقات انتاج اجتماعية جديدة وظهور نظام الزواج الاحادي الذي انتهت بموجبه سلطة المرأة . وبتكوين العائلة الابوية (البطريكية) .تكونت الدولة وبتكوين الدولة لم تعد العلاقات القرابية تلعب دورا هاما ، حيث سيطر اسلوب العمل نفسه على الناس . الذين اوجدوه بأنفسم واصبحت العلاقات القرابية القائمة على صلة الدم الطبيعية التي تربط الافراد بعظهم ببعض وسيلة سياسية .

البنية الاجتماعية التقليدية للعائلة العربية:

المجتمع العربي ، كما قلنا ، مجتمع قرابي ، تكون بنيته التقليدية على وحدات اجتماعية اساسها القرابة التي تتمثل بالعائلة التي خي جزء من الحمولة ، فالفخذ فالعشيرة فالقبيلة فاتحاد القبائل الذي يشكل المجتمع في اوسع صوره .

ومن الطبيعي ان تكون العائلة هي المؤسسة الاكثر قوة وتأثيرا فيلا المجتمع ، فهي لاالقوة التي تساعد عل مقاومة التغيرات والتحولات الاجتماعية والمحافظة على هوية الجماعة واستمرارها.

وتتكون الاسرة العربية عادة من عدة عوائل ، وهي اسرة ممتدة كبيرة الحجم ، وتشكل السمة الممزة لبنية العائلة العربية حتى منتصف القرن الماضي . ومن خصائصها انها تضم كل المنحدرين من جد ذكر واحد وينصهرون في وحدة واحدة ويحمل جميع افرادها اسم الجد الاول للاسرة ، كما في اغلب الدول العربية . وحتى بضعة عقود وكانت تعيش اجيال ثلاثة او اكثر في بيت واحد ، الجد والجدة والاب والام والاولاد . وكذالك اخوته واخواته وزوجاتهم واولادهم وفي احيان كثيرة العم والخال والخالة ، وبعض الاقرباء في بعض الاحيان .

وقد ارتبطت بنية العائلة العربية في الارياف ارتبطا وثيقا باسلوب الانتاج الاقتصادي السائد والعلاقات الاجتماعية و التي تشكل الارض والزراعة ركيزتها الاساسية . وكان النظام القرابي يجد مرتكزاته البنائية في العائلة الممتدة ، الذي يعكس ضرورة التماسك والتضامن والتعصب العائلي في مواجهة الاعباء والمشاكل والصراعات مع /وضد العوائل الممتدة الاخرى من جهة ومواجهة الاعباء الضريبية التي تفرضها الحكومات من جهة اخرى . لذلك نجد ان الاسرة الممتدة تمثل وحدة بنائية تظهر في وحدة العمل في الارض التي تحتاج الى تكثير النسل لرفد الارض بأيد عاملة كثيرة والزواج المبكر في داخل العائلة و وكذالك تعدد الزوجات وغير ذالك

بقي هذا النمط من الانتاج التقليدي من قرون طويلة . وقد ادركت الدولة العثمانية ،عبر مستوياتها المختلفة اهمية العائلة الممتدة كوحدة انتاجية جماعة يمكنها توفير الفائض الريفي الذي حولته الى استنزاف خراجي عبر صيغة الالتزام وجباية الضرائب . وسنت القوانين التي نظم بموجبها انتقال حق التصرف بالارض وحصره في نطاق الاسر الممتدة (العشائر) وربطها بشكل جماعي بالارض .

والواقع ، ان هذا النمط من الانتاج الذي يرتكز على نظام استثمار الارضي الزراعية ، وكان يستلزم بقاء نظام القرابة ،ويوفر في الوقت ذاته ، تماسكا عائليا وعشائريا قويا ، وقدرة الاستمرار وتشكيل وحدة اقتصادية – انتاجية واستهلاكية تسيطر على وسائل الانتاج وعلاقاته ، وتدفع الى السكن في منطقة جغرافية واحدة ، وهو ما ساعد على التعاون والتكاتف والتعصب لافرادها ، وذلك لان النشاط الانتاجي على الصعيد الاقتصادي مطبوع بطابع الاقتصاد الذاتي.

من هنا ، يلاحظ المرء ان العائلة العربيية الممتدة بشكل وحدة اجتماعية انتاجية بفعل استمرار الظروف والشروط البنيوية لتطورها حتى نهاية القرن التاسع عشر .

ولكن ، يلاحظ المجتمع العربي تحت السيطرة الاجنبية في اعقاب الحرب العالمية الاولى ودخول انماط جديدة في الانتاج

الراسمالي ، واستمرت العائلة الممتدة في نمط انتاجها وعلاقتها الاجتماعية . وقد ساعدت على استمرارها قوانيين الملكية العقارية التي بقت على الملكية الجماعية للعائلة الممتدة التي استمرت كوحدة انتاجية ترتكز على عصبية عائلية وتقوم على رابطة الدم والقربى ، حتى منتصف القر ن الماضي حيث حدث للبنى العائلية العربية تطور نوعي . بسبب التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ونمو المدن وتطور التجارة والصناعة والتعليم والاحزاب من جهة واتساع دائرة العمل والوضائف ، وبخاصة في الدول النفطية الريعية ، في القطاعين العام والخاص ، من جهة اخرى ، هو ما ادى الى تفكك بنية العائلة وتحولها الى عوائل نووية صغيرة او الى اسر صغيرة تتالف من الاب والام والاولاد الصغار ،. بالاضافة الى الجد والجدة احيانا ، وتسكن في بيت واحد مستقلة عن الاقرباء .

وقد اختلفت النسب بين العائلات الممتدة والعائلات النووية تبعا للموقعين الاجتماعي والاقتصاي ومكان اقامة العائة في المدينة والريف والواقع ان تحولا جوهريا اصابة بنية العائلة العربية فحولها بالتد ريج عن عائلة ممتدة الى عوائل نووية غير ان التحويل لم يلغ تماما علاقات القرابة والتعصب لها ، فثمة مظاهر سلوكية ما تزال تفعل فعلها في اعادة انتاج العرلاقات القرابية والصراعات العائلية ، التي يمكن ملاحضتها في الميل الى التقارب السكني من منطقة واحدة ومدينة واحدة ، وتوثيق علاقات القر ابة التي تتمثل بحضور المناسبات المختلفة التي تحدث في العائلة الممتدة ، في مناسبات عديدة كالزواج والوفيات والاعياد وغيرها ، واذا لم يعد الزواج الداخلي ، اي من العائلة الممتدة نفسها ، ويشكل قاعدة اجتماعية ثابتة ، الا انه ما يزال يشكل نموذجا مفظلا في كثير من العاوائل العربية الممتدة ، كما ان تشكيلات السلطة في العالم العربي ما زالت تعتمد علر النفوذ العائلي ، وما زالت التكتلات العائلية والعشائرية تلعب دورا هاما وبارزا في كثير من القرى والمدن العربيىة . وليس نادرا ان نجد افراد قبيلة واحدة او

مدينة واحدة او منطقة واحدة ، يسيطرون على السلطتين التشريعية والتنفيذية و يحكمون البلاد والعباد.

ومن الابعاد الهامة للزواج الداخلي السائد في العالم العربي والذي يقوم على مبدأ افضلية الزواج من بنت العم ، حماية الثروة العقارية في العائلة وتوثيق العلاقات القرابية على اساس رابطة الدم التي تزيد قوة العصبية القرابية وتحدد موقع العائلة على صعيد النفوذ الاجتماعي والسلطة . اما الزواج الخارجي . اي من خارج العئلة الممتدة ، فغالبا ما يأخذ ابعادا اجتماعية وساسية .

ولقد تلقف كل من مارسيل موس [Marcel Mauss 1872-1950] ورادكليف براون [Alfred Reginald Radcliffe-Brown 1881-1955] و برونيسلاف كاسبر مالينوفسكي [Bronisław Kasper Malinowski 1884-1942] هذا المبحث ليجعلوا منه هم الباحث الأنثروبولوجي الأول ومفتاح تعقل المجتمعات المسماة بدائية، وهو الفعل الذي أكبره ك. ل. ستروس C. L. Strauss فهؤلاء حسب رأيه قلبوا أوضاع الفكر الأنثروبولوجي عندما استعاضوا عن التفكير التاريخي بآخر، ذي طبيعة نفسية-سوسيولوجية، قائم على مفهوم المبادلة، فلقد أدرك جميعهم أن علاقات القرابة وسائل اجتماعية معدة للقيام بوظيفة اجتماعية، ألا وهي تأمين التوازن الإجتماعي وتأصيل السلم بين الأفراد وتأمين التلاحم والتماسك بين أعضاء المجموعة. وقد تحفظ ك. ل. ستروس C. L. Strauss أمام هذا الموقف ورأى ر. براون A. R. Brown أظهر الوظيفة، فيما ظلت المنظومة مجهولة.